مؤلف الطرسوسى فى التاريخ الحربى على عهد الأيوبيين

Un Traité D'Armurerie Composé pour Saladin. (Claude Cahen: Extrait du Bulletin d'Etudes Orientales, Tome XII-1947-1948).

التاريخ الحربى ميدان جديد للقوامين على الدراسات التاريخية فى مصر ، على أنه قديم قدم التاريخ والإنسان معا فى مصر وغيرها من البلاد ، فى الشرق والغرب . وإذا خطوط هذا الميدان الجديد رُسمت بتأسيس المتحف الحربى الملكى ، وإذا نواة العمل فى ذلك المتحف الكبير وُضعت بما اجتمع فيه من معالم الجهود الحربية المصرية فى مختلف العصور ، لم يبق على الجيل الحاضر من المؤرخين إلا أن يرقب ما تجود به مكتبات الشرق والغرب من متون تاريخية فى فن الحرب والصناعات الحربية ، وأن يعتصر ما فيها من حقائق لمعرفة الطاقة المادية لهذا البلد أثناء تلك العصور الماضية ، ليستجلى منها ما استطاع أن يقوم به أهله من أعمال فى مضمار الحروب . وما تستلزمه الحروب من تجييش الجيوش وإعداد العدد .

ومن هذه المتون ما نشر كلود كاهن ، أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة ستراسبورج ، من مقتبسات هامة من مخطوطة عربية فى فن الحرب والصناعات الحربية المصرية على عصر الأيوبيين ، واسمها " تبصرة الألباب فى كيفية النجاة فى الحروب من الأسواء ونشر أعلام الأعلام فى العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء " ، واسم مؤلفها مرضى بن على بن مرضى الطرسوسى الذى عاش زمن صلاح الدين الأيوبى ، وكتب كتابه من باب الإعجاب بأعماله الحربية ضد الصليبيين بالشام ، أو بناء على طلبه . وعاشر الطرسوسى من رجال الدولة الأيوبية رجلا عارفا بآلات الحرب وأنواعها ومصادرها ، محترفا صناعتها وأسرار تراكيبها ، وهو الشيخ أبو الحسن الأبرقى الإسكندرانى ، وكان هذا الرجل قبلا فى خدمة الوزير ضرغام أواخر أيام الدولة الفاطمية .

والكتاب على جانب من الأهمية ، لأنه — بادى القول — أقدم مخطوطة بين المخطوطات المعروفة حتى الآن فى فن الحرب والصناعات الحربية فى

مصر العصور الوسطى ، وما عداه من المخطوطات المقطوع بوجودها لا حق لها ، وهذه كثيرة ولكنها مبعثرة فى أشتات المكتبات بالشرق والغرب ، ومنها ما هو بالمكتبة الملكية بالقاهرة .

والكتاب — على أهميته هذه من الناحية العلمية البحتة — ظل مدفونا يعبر عليه السابقون للأستاذ كاهن ، دون أن يعيروه اهتماما . وأشباهه من المخطوطات العربية الصغيرة غير قليل لم يمسسه انتباه العاملين على التاريخ المصرى من المعاصرين ، لانصرافهم مضطرين حتى العصر الحاضر إلى الأمهات الكبرى والحوليات العامة ، أو لقلة المعرفة لديهم بأمثال مؤلف هذا الكتاب ، أو لغموض التعريف بالكتاب نفسه ومحتوياته ، كما هى الحال فعلا فى فهرس المخطوطات العربية بجامعة أكسفورد ، وهو الفهرس الذى عثر فيه الأستاذ كاهن على هذا الكتاب (Bodl. Hunt. 264) .

وأهمية ثانية لهذا الكتاب أنه يصف جميع أنواع الأسلحة المعروفة فى مصر على عهد الأيوبيين ، كما يصف وسائل صناعتها ، فضلا عن قطعة بديعة فى فن الحرب ، ودلك على حين أن الكتب الأخرى فى فن الحرب والصاعات الحربية تكاد تقتصر على ذكر النشابين والفرسان .

ولهاتين الأهميتين — وهما ليستا كل ما لهذا الكتاب من أهميات — تمنيت لو أن الأستاذ كاهن نشر هذا الكتاب بنصه وفصه ، ولم يقتصر على مقتبسات مجتزأة منه فحسب ، وذلك برغم ما أدلى به من أسباب علمية داعية للقنوع بالاقتباس والاجتزاء ، لأن حاجتنا فى مصر إلى مثل وأمثال من هذا الكتاب لا تقنع بما فيه من مادة فنية أو علمية خالصة ، بل تتعداها إلى حاجتنا إلى إحياء تراثنا القومى كاملا غير منقوص ، حبا فى إظهاره بحاله الأصلية ، وأملا فى التعرف منه على ما قد لا يهم الباحثين من المستشرقين الأوربيين ، ورغبة فى الاعتراف بالجميل للسابقين اعترافا لا يشوبه اختصار .

ومع هذا للأستاذ كاهن الشكر الموفور على ما أنجزه من نشر مقتبساته بلغتها ، ثم ترجمتها إلى العربية وتحشيتها بحواش أوضحت المتن كل الإيضاح . وأحب أن أنبه القارىء إلى هذه الحواشى الدقيقة ، لأنها من الناحية العلمية معين دافق للمتوفرين على التاريخ الحربى ، ومن الناحية الفنية نموذج للراغبين فى نشر المخطوطات العربية وإجلائها للباحثين .

أما الأهميات الأخرى لهذا الكتاب – وهى مما يزيد فى تقدير عمل الأستاذ كاهن – فهى أولا أن المتن يفيض بألفاظ اصطلاحية فنية فى صناعة آلات الحرب ، فضلا عن أسماء المواد التى احتاجت إليها تلك الصناعة ، مثل الحديد النرماهن والشبرقان والتنكار (ص ٤) ، والتوز ودهن الفراغ (ص ٦) ، وخشب التخش وخشب الزبوج (ص ٨) ، وحديد الأسطام والسبار (١٣) ، وغيرها مما عنى الأستاذ كاهن بإيراد مرادفه فى الفرنسية الحديثة ، وشرحه فى الحواشى من المراجع التى استقامت له أثناء عمله . والمتن يفيض كذلك بأسماء جرت مجرى المصطلح المتواتر عند الإخصائيين فى فن الحرب والصناعات الحربية ، مثل قوس الجراد الذى سمى بذلك لأن صنعة مجراها تجعل سهامها مرصوصة على هيئة خاصة " فإذا دفعها الوتر خرجت كالجراد المنتشر دفعة واحدة (ص ٩)" ومثل الرسالة ، وهى مدفع السهم (ص ١٠) ، والضفدعة ، وهى " قطعة من خشب الأبنوس تجعل فى تجويف الرمح وهى التى تدفع السهم " (ص ١٢) ، وهكذا مما يدرك أهميته الباحثون وراء ألفاظ الصناعات الحربية والتصنيع والترشيد والميكنة .

محمد مصطفى زيادة